



مبارك الحمداني

السييل إلى فاعلية الدراسة المصطلحية

يفكك الباحث عبدالحفيظ محمد الهاشمي - في مقالته المنشورة تحت عنوان «أولوية المنهج الوصفي في الدراسة المصطلحية» - الخطوط العريضة لضوابط استخدام المنهج في التعاطي مع أشكال الدراسة المصطلحية. تلك الدراسة التي يعرفها بالقول: «إنها الدراسة التي تتخذ المصطلح موضوعاً لها، وتسعى إلى «ضبط المعرفة العلمية.. وإعادة صياغة النماذج اللغوية في أنساق دلالية وعلائقية».

«هي أعمال علمية وليست أبحاثاً بمعنى الكلمة؛ لأنها تقدم وصفاً وتفسيراً لواقع ما معين، ولكنها لا تتعمق للكشف عن الطريقة التي تؤثر بها العوامل المختلفة على ظاهرة ما أو الكشف عن مقدار تأثير كل عامل على هذه الظاهرة كما يحدث عادة في البحوث التجريبية». وهذا لا يحقق وحده الهدف الأسمى في تقديرنا لوجود الدراسة المصطلحية.

إلا أن الهاشمي - وقبيل نهاية ورقته - يحاول البرهنة على مجموعة من المخرجات الملائمة في تقديره والتي يراها عائداً جيداً من وراء تقديم أولوية المنهج الوصفي في الدراسة المصطلحية. ولعله يرى أن هذا المنهج يمكن في المقام الأول من ضبط عناصر المتن المدروس بطريقة علمية أو أقرب بكثير إلى العملية والموضوعية؛ وذلك لكونها تستند في الأساس إلى الاستقرار والاستقصاء دون إغفال شارد أو نافر إلا ما لا غناء فيه ولا فائدة، أو سها عنه الفكر وأخطأه النظر. ولكن كل ذلك يقع في إطار النص الكائن نفسه لا في إطار تحويلاته.

كما يري الهاشمي أن أولوية استخدام المنهج الوصفي تمكن الباحث من ضبط العلاقات التركيبية القائمة بين العناصر المصطلحية المحصاة، مع التركيز خاصة على علاقات التضاد والترادف، والتقابل والتناظر، والعموم والخصوص، والاقتران والتعاطف والإطلاق والإضافة... إلخ. ومن شأن هذه العلاقات المختلفة أن تساعد على بلورة فكر بنيوي ونسقي ينظر إلى المصطلح في كل مظهره، وعلاقته، ومعتبراً المعجم كالمادة الواحدة، والمادة بالمصطلح الواحد. وفي ذلك من التكتيف والتدقيق ما فيه. ولكن هنا نسال الهاشمي: ماذا لو كان هناك تكامل منهجي مع المنهج التاريخي ليمكنا من الارتكاز على معطيات تحول المفهوم وكل المفردات بداخله؛ وبالتالي يكون للفكر البنيوي المراد تأطيره جذره التاريخي المستند إليه. والذي يمكن أيضاً في المقابل من استشراف دورة حياة المصطلح مستقبلاً قياساً على تحويلاته التاريخية؟ وفي نهاية المطاف، يسعنا أن نذكر ما قدم به الهاشمي ورقته قائلاً: «إن دراسة المصطلح هي عودة إلى الواقع العلمي الصحيح، وكشف لغطاء الغفلة المعرفية التي شملت كثيراً من الدراسات والبحوث سنين عدداً...»، ونضيف عليه بأن هذه العودة لا يمكن أن تقتد بأحادية المنهج ولا يمكن لها أن تبلور واقعا علميا مكاشفاً بأحادية الدرب إلى المعرفة. وإنما باستقصاء الأمثل من المناهج وعدم التورع في الدمج والتكامل والإثراء الذي يحقق في النهاية فهماً أوسع وتحليلاً أعمق.

دقيقاً؛ وبالتالي قد لا يتحقق جزء مهم مما تصبو إليه الدراسة المصطلحية أساساً، المعنية بتفكيك دينامية المصطلح وتطوره عبر الحقب الزمانية والمكانية التي طرح فيها، وإبراز بنيويته وتحولاته المستمرة. غير أن قوة المنهج الوصفي هنا وبؤرة إفادته إنما هي في اتفاقنا مع ما جاء به الهاشمي حين تطرق إلى نقطة أن هذا المنهج يتيح لمستخدمه المقارنة بين دلالات الألفاظ في المؤلف نفسه أو المؤلفات لنفس الكاتب. لكن ذلك يقع كله داخل دائرة النص الراهن ولا يكشف المقارنة الحقيقية التي تخدم التراكم المعرفي من خلال تبيان أساليب تطور استخدام المصطلح والمعاني القائمة عليه.

وفي هذا الصدد، يسعنا القول بأنه وإذا كانت الدراسة المصطلحية للمصطلح تعني أنها تكوين بطاقة هوية للمصطلح داخل المؤلف، أي أنها تعنى بتشخيصه وبلورة وبيان وتوضيح كل ما له صلة بالمصطلح في ذلك الكتاب من أي جهة، فإن هذه الدراسة تظل دراسة مصطلحية تشخيصية لراهنية نص معين. بمعنى أنها لا تثري الصيرورة العلمية ولا تقدم الإفادة العلمية الموسعة. ذلك أننا اليوم في حاجة إلى ما يعرف في أدبيات البحث الراهنة بـ«التكامل المنهجي»، الذي لا يقف عند حدود منهاج معين لاقتداد المعرفة وتوضيح التفاصيل والحيثيات. وإنما لا يتحرج من دمج المناهج بما يحقق الفائدة العلمية الحقيقية. فالدراسات الوصفية وحدها - وكما يراها الباحثون -

للتحول والنمو والتطور والميلاد والتبدل. وعليه، فإن هذه المماثلة البيولوجية ترفد أهمية الوقوف عند الدراسة المصطلحية بكونها تدلف إلى دراسة المصطلح بكافة علاقاته وظروفه، وارتباطاته تنظيراً وتطبيقاً، وتكشف عن كل ما يتعلق به من قضايا مصطلحية عامة وإشكالات لغوية أو مفهومية، مع بيان جميع أشكال تطبيقاته وضمانه والقضايا المستفادة منها.

... إن هذه الفهم ماهية الدراسة المصطلحية يقترح لنا طبيعة المناهج المستخدمة فيها. ويوقفنا عند تخير المنهج الأنسب والذي يتوافق مع أولويات تحقيق المصطلح ويرفدنا بالفهم المنهجي السليم له، ويقدم لنا الأدوات الموائمة لتحليله. وفي هذا الصدد يذهب الهاشمي للقول بأولوية المنهج الوصفي في الدراسة المصطلحية وي طرح ذلك لاعتبارات شتى. فالهاشمي يؤكد ذلك قائلاً: «...وصفيته تتجلى في كشفه أو في محاولة كشفه عن المراد من المصطلحات في المتن المدروس أو المتن المدروس في فترة زمنية بعينها ليست ذات امتداد تاريخي، أما إذا وجد الامتداد التاريخي، فإنه لا بد أن يصحب المنهج الوصفي المنهج التاريخي، لأن المصطلح قطعاً سيكون خضع لضرب من التطور. إما في الدلالة وإما في الاستعمال، اتساعاً وضيقاً ومشتقات...». وهنا نجد أن الباحث ناقض الأولوية التي يدعو إليها في سياق النص نفسه؛ فالمنهج الوصفي سيقدم لنا دراسة للمصطلح كما يوجد في سياق النص، ويهتم بوصفه وتحليله وتفكيكه وصفاً

... إن الحديث الجاري عن أهمية الدراسة المصطلحية - خصوصاً في سياق العلوم الشرعية - واعتبارها منهجاً ملازماً لتطور إستمولوجيا المعرفة الشرعية، سياق يفرضه المتغيرات الراهنة للكثير من الجزئيات التي تبني عليها مناهج ومفاهيم المعرفة في العلوم الشرعية من خلال علاقتها الجدلية مع صيرورة الواقع المعاش وتحولاته. ومن هنا، فإن الحديث عن هذه الأهمية لا يحتاج من الدلالات سوى قراءة الوقائع الجارية والأطروحات التي تفرض تسليط الضوء على دينامية المعرفة والمصطلحات الشرعية. لذا؛ فإن الدراسة المصطلحية - كما يُشدد اليوم الكثير من الباحثين - أصبحت من أشد الضرورات؛ سواء تعلق الأمر بدراسة مصطلحات نقدية قديمة وتراثية، أم تعلق بدراسة مصطلحات نقدية حديثة ومعاصرة. وكما يقول أحدهم، فإن «المصطلحات أشبه ما تكون بالذاكرة الحاسوبية في صغر الحجم، وسعة الاكتناز.. إنها موطن أسرار الحضارة، ومفتاح شخصيتها».

ولو أخذنا بسياق الدرس والتحليل المفهوم المنهجي للدراسة المصطلحية، فإنها تنظر بشكل عميق وموسع يأخذ كل الحيثيات اللازمة للنظر في دقائق مكونات المصطلح وأصوله المرجعية. كل ذلك قصد البحث عن مقاصده وتوضيح إمكانات راهنيته وإزالة اللبس القائم فيه. وفيما لو تحقق ذلك على مستوى العلوم جميعاً، لا في العلوم الشرعية فحسب، فإن ذلك كفيل بأن يمكن الدارسين والباحثين ومن تنقل إليهم المعارف في صورة نتاج علمي أن يلجوا إلى العلوم بأفق متفتح وفهم سليم.

وفي الجانب الآخر، فإن الدراسة المصطلحية - في شق مهم - تسير بالدارس والمحلل نحو تدقيق وفهم الجهاز الإبداعي داخل النص، وهي تكشف لأي قارئ مدى تمكن الباحث أو الطارح من الفهم الدقيق ودرجة العلمية والفنية في التعاطي مع المصطلحات وإتقان فهمها وتوضيحها. وهي - كما يؤكد الهاشمي - السبيل الأسلم الذي يؤهل للخوض في الأسس المعرفية للعلم والنظم في الجهات المحيطة به الغذائية له، والتي عليها يعول في تأسيسه ووجوده.

وفي تقديرنا، فإن الأهمية الراهنة لضرورة الوقوف على توسيع نطاق الدراسات المصطلحية تكمن في تبدل النظرة إلى المصطلحات في النظريات النقدية المعاصرة، والتي أصبحت تنظر للمصطلح - سواء كان علمياً، أو نقدياً، أو شريعياً، أو أدبياً، أو ما سوى ذلك - على أنه (صيرورة متحولة) تماثل في دورتها دورة حياة الكائن الحي. وتتسق في بنيتها مع تكوينه وإمكانه

